مجلة الشهاب • المجلد: 09، العدد: 02 (2023م) • ص ص 509 - 526
(ISSN: 2477-9954, EISSN: 2602-5485)
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/391

مفهوم التاريخ ـ مراجعة سننية

The concept of history is a sunaniy review

د/ عمار قاسمي *
مخبر الدراسات العقدية ومقارنة الأديان،
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية (الجزائر)
a.gasmi@univ-emir.dz

تاريخ الاستلام: 2022/07/24 | تاريخ القبول: 2022/09/05 | تاريخ النشر: 2023/07/15

❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖

ملخص: يهدف هذا البحث إلى تصنيع مفهوم التاريخ من خلال تتبع سيرته نشأة ومسارا ومآلا، وتحديد موقعه في النظام المعرفي للأمة، ثم الكشف عن آليات تقويضه وتشغيله، فالمعادلة الحضارية تؤكد أنه لا نهضة إلا بتفعيل النظام المعرفي، ولا يكون التفعيل إلا بقراءة التاريخ والاعتبار به والتحقق بسننه، ولا يستقيم ذلك إلا بضبط مفهوم التاريخ، لأن عدم انضباطه يؤدي إلى تشتت الهوية وتعطيل دور الدين، نظرا لسيطرة الأنظمة المعرفية الأخرى عن طريق الغزو المعرفي والثقافي.

وقد توصل البحث إلى عدة نتائج أهمها: إن علم التاريخ علم أصيل أنتجته الثقافة الإسلامية، في ثورتها المعرفية على النموذج المعرفي اليوناني الذي كان يطابق بين العقل والوجود، خاصة المدرسة الأشعرية، غير أن عدم وجود المادة "تاريخ" في القرآن الكريم، دفع العلماء إلى البحث عن جذورها، مما أدى إلى الاختلاف في تأصيلهم اللغوي، فانعكس سلبا على ثباته، لهذا يجب التمييز بين الدال "تاريخ" المفقود، والمدلول "مفهوم التاريخ" الأصيل، لتجنب المفارقة بين الرسم اللغوي والمعنى.

الكلمات المفتاحية: التاريخ؛ الملكوتي؛ النظر السنني؛ النظر السببي؛ النظام المعرفي؛ السننية.

Abstract : The research aims to the making of the concept of history by tracking its biography, and determining its location in the cognitive system, there is no renaissance except by activating the cognitive system, and activation is only by reading history to verify its age, and this is only correct by controlling the concept of history, because its lack of discipline leads to the fragmentation of identity and the disruption of the role of religion, due to the control of other cognitive systems through cognitive and cultural invasion.

The most important results: History is an authentic science produced by Islamic culture, in its cognitive revolution on the Greek model, so a distinction must be made between the lost "history" function and the original meaning of the "concept of history", to avoid the paradox between linguistic drawing and meaning.

Keywords: history; royalty; age consideration; causal consideration; cognitive system; sunnany.

* المؤلف المراسل.

1. مقدمة

يرتبط الوجود الحضاري للأمة بثقافتها، وتَتَحَدَّدُ نوعية الثقافة وقوتها بالنظام المعرفي، ويَنْضَبِطُ هذا الأخير تفعيلا أو تعطيلا، بالمفاهيم التي تعكس كوامِن فلسفة الأمة وتراكُماتها المعرفية وانعكاساتها السلوكية، لذلك كانت المفاهيم أهم ميادين الصراع الحضاري عبر التاريخ، فهي أول العناصر تأَثُّرا أثناء تقلبات الأمة نموا أو تراجعا؛ فسلامة الأمة وقوتها ما هي في الحقيقة إلا سلامة وقوة مفاهيمها؛ بناء أو ضبطا أو تأصيلا.. ومرض الأمة ما هو إلا مرض مفاهيمها غموضا وميوعة وخلطا والتباسا..

ولما كانت المفاهيم تمثل خلاصة عقائد الأمة وفكرها وفلسفتها وقيمها، وهي التي تحدد سلوكها.. وفي كلمة جامعة هويتها ونظامها المعرفي، فإن الحديث عن شخصية الأمة وهويتها لا ينفك عن تاريخها، "لأن التاريخ هو الذي يصنع المجتمع ويسير بركب التقدم نحو شكل من أشكال الحياة الراقية، هو ما نطلق عليه اسم الحضارة" (نبي، 2000، صفحة 19). فلا يستقيم الأمر دون تفعيل المعادلة الحضارية، ولا يكون التفعيل إلا بضبط مفهوم التاريخ، لأن تعطيل هذا الأخير يؤدي بالضرورة إلى تعطيل النظام المعرفي الإسلامي، وهذا بدوره يؤدي إلى غموض مفهوم الهوية وتعطيل دور الدين نظرا لسيطرة الأنظمة المعرفية الأخرى عن طريق الغزو المعرفي والثقافي، وهذا ما يجعل الأمة تفصل بين فعل التعمير وفعل التسخير، فيتحول الإنسان فيها من دور الفاعل إلى دور المنفعل، ومن دور الباني إلى دور الجاني ومن حالة التناغم والانسجام إلى حالة الاغتراب، ومن سلوك الائتلاف إلى سلوك التنازع والاختلاف؛ فالعجز عن ضبط مفهوم التاريخ وإعادة بنائه وتفعيله بما يتناسب والظروف الجديدة، والعجز عن إعداد الرجال الذين يُفَعِّلون النظام المعرفي، يؤدي إلى استمرار حالة الفراغ الزماني والمكاني والشلل الحركي، فتنقطع الصلة بين الهوية الحضارية والدور الاجتماعي اليومي، فتفقد الأمة كل صلة بمرجعيتها العقدية والفقهية، وتتحول إلى مجرد مقلد غير فاعل.

ولما كانت طريقة تفاعل المسلمين مع تاريخهم من أخطر مشكلات ثقافة الأمة، مرة تستخدمه لبث الأمل في قرب القَوْمَة، ومرة تستخدمه في التذكير بالأمجاد والأسبقية في الريادة والتفوق في الإنتاج العلمي والمعرفي على الأمم الأخرى، ومرة تذكرنا بالملاحم والبطولات والغزوات، ومرة تستخدمه لبث اليأس والإحباط بأن صفات التخلف والتبعية والتقليد.. صفات قارة في المسلم، حتى أصبح ينظر للتاريخ نظرة سوداء؛ يذم فيها المسلم نفسه وأسلافه ويعتبر أن ماضيه هو السبب الأساسي في تخلف حاضره وانسداد مستقبله.

فإن السبب المحوري في هذه المشكلة هو غموض مفهوم التاريخ في حد ذاته، فقد تطور علم التاريخ وتطورت مناهج التاريخ، بل أن هناك تاريخ يُنجز من حولنا في كل يوم دون أن نساهم في صناعته، بينما نحن ما نزال قابعين في لحظة تاريخية معينة ومنهج تاريخي معين.

لنخرج من مصيدة التاريخ علينا أولا إعادة مراجعة مفهوم التاريخ مراجعة سننية شاملة تزيح عنه

الغموض وتدفع عنه كافة الدلالات السلبية التي تسربت إليه ورسخت فيه، وكما يحتاج مفهوم التاريخ إلى إعادة مراجعة، تحتاج الأمم ذات التاريخ العريق إلى الحذر من أن تكون ضحية لتاريخها المجيد، فإعادة مراجعة مفهوم التاريخ يؤدي إلى إعادة فقه التاريخ بصفته فاعلية حققها أسلافنا الذين صنعوا تاريخهم بأنفسهم.

1.1. إشكالية البحث:

لما كان عدم استقرار المفاهيم من أهم الأسباب التي تؤدي إلى الاختلاف المذموم والتنافر والتشتت والتمزق إلى طوائف وشيع، فإن مصطلح "تاريخ" من أكبر الألفاظ التي لم تشهد عبر تاريخها الطويل استقرارا في مفهومها، ولا انضباطا في حدها، ولا ثباتا في جذرها اللغوي والمعرفي، مما يسمح بطرح الأسئلة التالية: كيف يمكن أن الانتقال بالتاريخ من "النظر السببي" الذي يحصر البحث التاريخي في الكشف عن القوانين السببية الظاهرة، إلى "النظر السنني" الذي يسعى إلى تدبر وتفكر وتعقل.. الآيات التي تتضمنها الظواهر التاريخية للكشف عن السنن الثابتة، التي تربط التاريخ بالبعد الغيبي؟ وفي كلمة جامعة: كيف يمكن إعادة تصنيع مفهوم التاريخ تصنيعا سُننيًا؟

2.1. فرضيات البحث:

يُفترض أن التاريخ عنصر أساسي للحفاظ على الهوية وتفعيل الحقل المعرفي، فإذا تم ضبطه وتفعيله فهذا يعني رجوع الحياة للهوية. كما يفترض أن تحقيق الاستقرار في المفهوم يعني النجاح في استقرار الهوية وثباتها، وهذا ينعكس إيجابا على الاستقرار الثقافي والاجتماعي والسياسي والتوازن السلوكي...

3.1. أهداف البحث:

يهدف هذا البحث إلى إعادة بناء مفهوم التاريخ حسب ما يقتضيه البعد المعرفي والبعد المنهجي والبعد الواقعي للثقافة الإسلامية، من خلال جمع الدلالات المشتتة لمفهوم تاريخ وصهرها في مفهوم جامع بتسمية أصيلة وجديدة تتوافق والتداول الإسلامي للتاريخ.

4.1. منهجية البحث:

ولتحقيق هذه الأهداف سلك البحث منهج الاستقراء كمنهج محوري، واعتمد مجموعة من الآليات المنطقية اللسانية خاصة المتعلقة منها بتوجيه الفكر، فجاءت خطة البحث متضمنة مبحثين؛ الأول اختص بدراسة المتاهة اللغوية التي كانت أحد الأسباب في عدم استقرار مفهوم التاريخ في اللغتين العربية والأجنبية. ووقف المبحث الثاني عند مفهوم التاريخ من "النظر السببي" إلى "النظر السنني" وإعادة تصنيع مفهومه، وجعل من ابن خلدون محطة فاصلة بين حقبتين، الأولى تناولت مفهوم التاريخ قبل ابن خلدون والثانية تناولته بعد ابن خلدون وبعد تحليل المفاهيم ليصل في النهاية إلى المفهوم السنني.

2. المتاهة اللغوية للفظ "التاريخ" والمخرج السنني

1.2. الجذر اللغوي للمادة تاريخ في التداول الإسلامي

كلمة "تاريخ" تكاد تكون منعدمة بهذا الرسم في القرآن الكريم والحديث النبوي الصحيح، وغياب المصطلح لا يعني غياب المعنى، فلقد ورد في القرآن الكريم ما يدل على المعنى تاريخ، وعلى ضرورة الاهتمام به، ويتضح ذلك من الآيات التي تحمل لفظ القصص، التي تمثل مشاهد الأخبار المؤثرة للاعتبار وإتباع الأثر واستنباط السنن، "بل أن ثمة حقيقة أساسية تبرز واضحة في القرآن الكريم، تلك هي أن مساحة كبيرة في سوره وآياته قد خصصت "للمسألة التاريخية" التي تأخذ أبعادا واتجاهات مختلفة وتتدرج بين العرض المباشر والسرد القصصي "الواقعي" لتجارب عدد من الجماعات البشرية، وبين استخلاص يتميز بالتركيز والكثافة للسنن التاريخية التي تحكم حركة الجماعات عبر الزمان والمكان، مرورا بمواقف الإنسان المتغيرة من الطبيعة والعالم، وبالصيغ "الحضارية" التي لا حصر لها والتي تتأرجح بين البساطة وبين النضج والتركيب.. وتبلغ هذه المسألة حدا من "الثقل" و"الاتساع" في القرآن الكريم بحيث أن جل سوره لا تكاد تخلو من عرض لواقعة تاريخية، أو إشارة سريعة لحدث ما أو تأكيد على قانون أو سنة تتشكل بموجبها حركة التاريخ" (خليل، 1978م، ط2، صفحة 5).

ولعل أهم شيء يُفَسّر سعة وكثافة المساحة التاريخية في القرآن الكريم، هو ارتباط حركة التاريخ بعملية التغيير التي لها جانبين نظري وعملي:

الجانب النظري: الإلهي الرباني الذي يمثل مختلف الشرائع الإلهية التي اكتملت مع سيد المرسلين؛ من عقائد وأحكام ومناهج وتشريعات، والتي نزلت عن طريق الوحي لتضبط وتوجه الفعل البشري، وهي صالحة لكل زمان ومكان ولكل المجتمعات البشرية، مما يجعله –الجانب النظري- بهذه الخصائص فوق التاريخ وإن كان هو الذي يضبط حركة التاريخ.

الجانب العملي: وهو الذي يرتبط بالفعل البشري الذي يقع على مسرح التاريخ لإحداث عملية التغيير، وتحكمه السنن التي تحكم الجنس البشري عبر الأزمنة والعصور.

إذن فالتاريخ في القرآن الكريم؛ هو الفعل البشري الذي تتحكم فيه الضوابط التي وضعها الله تعالى لتنظيم مختلف الظواهر في الساحة التاريخية وهي؛ سنن الله في الآفاق والأنفس والهداية والتأييد، ونتائج الفعل التاريخي ترتبط ارتباطا مباشرا بدرجة الوعي بهذه السنن والتحقق بها؛ ففي رواية القرآن الكريم لمعركة أحد، لم يقل أن الإسلام هو الذي انهزم، لأنه رسالة فوق التاريخ، وإنما المسلمون هم الذين انهزموا، لأنهم أناس تتحكم فيهم سنن ثابتة لا تتبدل ولا تتحول، والنصر والهزيمة مرتبطان مباشرة بدرجة الوعي بهذه السنن، لهذا نجد القرآن الكريم ينبه ويحذر المسلمين إن لم يقوموا بدورهم التاريخي ويتحملوا المسؤولية التي أناطها الله تعالى بهم، ويحققوا الوعي الكافي "بمنظور السننية الشاملة" (برغوث، 1425هـ-2004م، ط1، الصفحات 18-22)، فإن التاريخ سيمضي في حركته

ويستبدلهم بإذن ربه بأقوام آخرين يؤدون هذا الدور المطلوب، ولا تتعطل رسالة الإسلام قال الله عز وجل: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**﴾ (المائدة:54).

والقرآن الكريم حدد الإطار العام لهذه السنن، فأي بحث فيها يجب أن يكون مرتبطا بهذا الكتاب لأنه كتاب هداية للناس كافة، يتضمن التوجيه والرؤية الموضوعية للأحداث والظروف والشروط اللازمة لتفعيل حركة التاريخ.

أما في العربية فقد انعكس تعدد المصادر اللغوية للمادة "تاريخ" على استقرار مفهومه، فقد اختلف المؤرخون والعلماء في تحديد الجذر اللغوي؛ فابن منظور قال: "أَرخ التَّأْرِيخُ، تعريف الوقت، والتَّوْرِيخُ مثله، أَرَّخَ الكتابَ ليوم كذا، وَقَّته والواو فيه لغة، وزعم يعقوب أن الواو بدل من الهمزة، وقيل: إن التأْريخ الذي يُؤَرِّخُه الناس ليس بعربي محض، وإن المسلمين أخذوه عن أهل الكتاب، وتأْريخ المسلمين أُرِّخَ من زمن هجرة سيدنا رسول الله، كُتِبَ في خلافة عمر، رضي الله عنه، فصار تاريخاً إِلى اليوم" (منظور، د ت، صفحة المادة أرخ).

أما السخاوي في كتابه، "الإعلان بالتوبيخ لمن ذم علم التاريخ": فأورد عدة تعريفات له ولغيره؛ "التاريخ في اللغة يعني الإعلام بالوقت، فيقال أرخت الكتاب وورّخته، أي بينت وقت كتابته. وقال الجوهري: التاريخ تعريف الوقت والتّوريخ مثله، فيقال أرخت وورخت، وقيل اشتقاقها من الأرخ يعني بفتح الهمزة وكسرها وهو صغار الأنثى من بقر الوحش، لأنه شيء حدث كما يحدث الولد. وقد فرق الأصمعي بين اللغتين فقال: بنو تميم يقولون ورخت الكتاب توريخا، وقيس تقول أرخته تأريخا. وهذا يؤكد كونه عربيا، وقيل أنه ليس بعربي محض، بل هو معرب مأخوذ من "ماه روز" بالفارسية، "ماه" القمر و"روز" اليوم، وكان الليل والنهار طرفه. وقال أبو منصور الجواليقي في كتابه: "المعرب من الكلام الأعجمي" يقال أن التاريخ الذي يؤرخه الناس ليس بعربي محض، وإنما أخذه المسلمون من أهل الكتاب، وتاريخ المسلمين أرخ من سنة الهجرة، كتب في خلافة عمرﷺ فصار تاريخا إلى اليوم. قال أبو الفرج قدامة بن جعفر الكاتب في كتاب "الخراج": تاريخ كل شيء آخره، فيؤرخون بالوقت الذي فيه حوادث مشهورة. ونحوه قول الصولي: تاريخ كل شيء غايته ووقته الذي ينتهي إليه زمنه، ومنه قيل لفلان تاريخ قومه، إما لكون إليه المنتهى في شرف قومه، كما قاله المطرزي، وذلك بالنظر لإضافة الأمور الجليلة، من كرم أو فخر أو نحوهما إليه، وأما لكونه ذاكرا للأخبار وما شاكلها، ومن يلقب بذلك أبو البركات محمد بن سعد بن سعيد البغدادي العسال المقرئ الحنبلي المتوفى سنة تسعة وخمسمائة هجرية) (السخاوي، الإعلان بالتوبيخ لمن ذم علم التاريخ، 1986، الصفحات 16-18).

إذن هناك من يرى بأن أصل الكلمة مأخوذ من الفارسية "ماء روز" التي تعني "ماء: تعني القمر،

وروز: تعني اليوم"، أي بداية اليوم من ظهور الهلال، وفي المصباح المنير ما يؤكد ذلك: «التاريخ بالليالي لأن الليل عند العرب سابق على النهار، لأنهم كانوا أميين لا يحسنون الكتابة ولم يعرفوا حساب غيرهم من الأمم، فتمسكوا بظهور الهلال ولما كان يظهر بالليل جعلوه ابتداء التاريخ» (عاصم، 1991م ط1، صفحة 8). وهذا ما جعل قسطنطين زريق يعتقد بعدم أصالة مصطلح "تاريخ" في العربية، ويرى أنه انتقل من الفكر الغربي (زريق ق.، د ت ط1، صفحة 15).

وهناك من يرى أن اللفظ تاريخ العربي مشتق من اللغة العبرية "ياريخ" التي تعني القمر أو "يرخ" التي تعني الشهر، وهو الأمر الذي رفضه (فرانز روزنتال) (روزنتال، 1963م، صفحة 21) والسيد عبد العزيز سالم (سالم، 1981م، ط1، صفحة 17). لهذا ذهب البعض إلى أن "كلمة تاريخ ليس لها أصل واضح في اللغة العربية، يظن البعض أنها اقتباس تحويري لكلمتي إرخايوس وأرخي اليونانيتين والتين تعنيان القديم والبداية" (قاسم ع.، 15 أكتوبر 2009م، صفحة 5)، ولو حاولنا عرض كل النماذج التي تعبر عن عدم استقرار مفهوم التاريخ من حيث الاشتقاق اللغوي لطال بنا المقام، ولعل تعدد أصول الاشتقاق للفظ "تاريخ" يدل على أصالته في اللغة العربيَّة، فقد فرَّق الأصمعيُّ بين لغة تميم وقيس، ولو كان معربا لكان أصله واحد هو اللغة التي عرب منها، على الرغم من أنّ كلمة "تاريخ" لم ترد فيما وصلنا من الشعر الجاهليِّ، كما أنَّها لم ترد في القرآن الكريم والحديث الصحيح، والذي يعنينا هنا هو الأمور التالية:

أولا: إن السبب الأساسي الذي أدى إلى عدم استقرار معنى التاريخ هو القواميس والمعاجم العربية، فقد لجأ أصحابها في تأصيلهم اللغوي إلى اللسان العربي المتداول في البيئة العربية بمختلف تراكماتها الثقافية، ولم يرجعوا إلى القرآن الكريم، الذي أنزل بلسان عربي مبين، والذي يتضمن الكلمة الطيبة التي هي كالشجرة الطيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها.

ثانيا: إن انفتاح اللغة العربية على الثقافات الأخرى؛ اليونانية والفارسية والعبرية.. رغم أنه ساهم بعض الشيء في إثراء الثقافة الإسلامية، إلا أنه كان سببا أساسيا في اضطراب مفاهيمها.

ثالثا: رغم سعة اللغة العربية وتميزها بخاصية التوليد إلا أن هناك الكثير من الألفاظ التي وفدت إليها واستوطنت في جسمها وشوشت على أصالتها.

غير أن الشيء الذي يجمع هذه التعريفات والأصول اللغوية ويؤصلها في المفهوم القرآني هو معنى الوقت، أو الزمن، لأنه هو المفهوم الجامع المانع للإنسان، (الإنسان هو الوقت)، وبما أن الإنسان هو الذي يقوم بالفعل التاريخي والحضاري كما سبق، فإن التاريخ هو الإنسان ذاته في لغة العرب، فالإنسان أيام، فإذا ذهب يومه ذهب بعضه، وإذا ذهب بعضه أوشك أن يذهب كله، كما أكد ذلك الحسن البصري رضي الله عنه، وهذا يبين بوضوح؛ قيمة التاريخ بالنسبة للإنسان وقيمة الإنسان بالنسبة للفعل التاريخي والحضاري.

2.2. الجذر اللغوي للمادة تاريخ في اللغات الأجنبية والاحتضان الإسلامي

أما في اللغات الأوروبية، فقد قام عبد الرزاق قسوم بترصد حركة المفهوم نشأة ومسارا ومآلا وصولا إلى الحقبة المعاصرة (قسوم، 1426هـ-2005م، الصفحات 15-33)، وتوقف قبله إدوارد كار Edward Hallett Carr في أوائل الستينيات ليطرح السؤال عن ماهية التاريخ؟ نتيجة التطورات الجديدة التي تمخضت عن الحربين الغربيتين الأولى والثانية، وأدخل تلاميذه التاريخ إلى النسبية مسايرة لنظرية النسبية في الفيزياء بعد أربعين سنة من سؤال أستاذهم، بطرحهم أسئلة عن التخصصات الفرعية داخل التاريخ، وأصبحت الدراسة التاريخية في الغرب هي "قراءة أحداث الماضي من أجل الاستفادة منها لخدمة الجماعة في حاضرها ومستقبلها" (ريتشارد، 2006م، صفحة 12)، وغدا التاريخ يخدم مصالح الغرب ويبرر تصرفاتهم؛ بالتركيز على القيم الفردية والمنافسة والترويج لفكرة روما القديمة، وفكرة الاستعمار والغزو من أجل نشر قيم الديمقراطية، واختصرت الماركسية تاريخ البشر في تاريخ الصراع الطبقي على وسائل الإنتاج، وزعم (رانكه) أن التاريخ هو سرد الأحداث كما هي بالضبط، واعتبر كروتشيه أن المعرفة التاريخية نوع من العمل الذهني ووصل إلى نتيجة أن التاريخ كله معاصر، وهذب كولنجود أفكار كروتشيه والفلاسفة المثاليين عموما، وزعم إزوالد شبينجلر أن الغرب يسير نحو الاضمحلال لأن التاريخ يمر بدورة حياة مثل الكائن الحي، ثم جاء أرنولد توينبي ونظر إلى التاريخ نظرة فيها نوع السننية حين أكتشف أن هناك قوانين ثابتة تحكم نشأة وتطور وانهيار الحضارات، وان هناك نوع من التكرار يحكم الظاهرة الحضارية والظاهرة التاريخية، فقد بين في كتابه "دراسة التاريخ" أن هناك 21 حضارة مرت بمراحل متشابهة في النمو والانهيار والتحلل النهائي، وأن المرحلة النهائية في كل حضارة من هذه الحضارات يتم فيها تكوين دولة عالمية، فقد استخدم الاستقراء وذلك بفحص جزئيات الماضي لمعرفة الكليات التي بني عليها الحاضر في كل حضارة من الحضارات (أرنولد، 2011م، الصفحات 3-20). ورغم هذه النظرة السننية الجزئية إلا أن توينبي لم ينجو من الاتجاه البرجماتي العالم للغرب الذي يقرأ التاريخ ليبرر أفعال الحاضر ويخدم أغراض المستقبل، بينما القصص القرآني يدعو إلى الاعتبار بأحداث التاريخ لاكتشاف السنن الثابتة وفقهها لتلافي ما وقع فيه الأسلاف من أخطاء وخدمة أغراض الحاضر والمستقبل بشكل صحيح.

قال عاصم الدسوقي: «كلمة التاريخ مأخوذ من الأصل اليوناني (Historia)، التي تعني البحث والتقصي والمشاهدة» (عاصم، 1991م ط1، صفحة 8) لكن الدكتور عاصم الدسوقي انحاز في استخدام هذا التعريف، حيث أعطى لهيرودوت مكانة ابن خلدون، تأمل القول التالي: "قبل هيرودوت كانت أعمال الكتاب القدامى، تقتصر على القصص، ولكنه عني بالكشف عن الحقيقة وما يتبعها من معان، مما جعله إماما للتاريخ، وتحولت الأساطير على يديه إلى تاريخ علمي، بل أصبح التاريخ في نظره دراسة اجتماعية تتميز عن دراسة الأساطير" ثم أردف قائلا: "إن اختلاف مفهوم التاريخ بين اللغة العربية واليونانية، ليس في الشكل فقط، وإنما في أسلوب الكتابة التاريخية، فبينما انحصرت كتابة

التاريخ عند العرب على المنهج السردي، نجدها عند الأوروبيين تجاوزت إلى البحث والتقصي والمشاهدة" (عاصم، 1991م ط1، صفحة نفسه).

إلا أن عبد الله العروي رغم اتجاهه التغريبي الماركسي اعترف بشكل صريح بأصالة التاريخ عند علماء الإسلام: «لقد فشلت كل المحاولات للعثور على مؤثرات خارجية، يونانية أو فارسية، على غرار ما كشف عنه المنقبون من مؤثرات أجنبية في الفلسفة وعلم الكلام.. ليس التاريخ الإسلامي نقلا أو اقتباسا أو استعارة من الغير، أن كلمة تاريخ كلمة عربية الأصل، والكلمة الأجنبية "أسطوريا" التي كان من الممكن استعارتها، استعملت فعلا لكن في معنى آخر، للتعبير عن القصص الخيالية الميثولوجية، التي لا تخضع لقوانين المراقبة والفحص والتحقيق لحوادث التاريخ القريبة والبعيدة، ولذلك سيعتقد العرب مدة طويلة، ويفخروا أنهم وحدهم شعب تاريخ، والشعوب الأخرى تملك فقط حكايات لا يجد اليقين إليها سبيلا» (العروي، 1973م، صفحة 45).

"التاريخ هو رواية الأحداث... فهو مثل الرواية الأدبية يقوم بالانتقاد والتبسيط والتنظيم والإلمام بقرن كامل في صفحة واحدة" (قيين، 1993م، صفحة 26)، فالتاريخ في الأصل أحداث إنسانية حقيقية؛ الإنسان هو فاعلها، وهو الذي قام بإدارتها، لكن يتم تحوير هذه الأحداث حسب وجهة نظر المؤرخ الذي يكتب، والأشخاص الذين شهدوا الحادثة التاريخية، ولا غرابة أن نجد أرسطو طاليس يذم التاريخ لأنه يستغرق في الجزئيات المشخصة فتغيب عنه الحقائق ويتيه في الأسطورة والخرافة، وهذه هي صورة التاريخ كما رسمها هوميروس وهوزيود وحتى هيرودوت.

فالتاريخ في التداول الغربي "معرفة بواسطة الوثائق، ولكن السرد التاريخي يتجاوز كل الوثائق، ويضع نفسه فيما وراء الوثائق" (قيين، صفحة 27 نفسه)، والوثيقة التاريخية اعتبرت منذ البداية عبارة عن حكاية عن الحدث فهي تشكل وجهة نظر معينة، فالتاريخ إذن؛ ابن الذاكرة والذاكرة تؤثر فيها عوامل ذاتية وأخرى موضوعية، لهذا فالحادثة التاريخية متفردة لا يمكن أن تتكرر، وإذا تكررت لا تعيد نفسها حتى إن توفرت الأسباب نفسها، فالمفهوم الغربي للتاريخ يجعل منه ظاهرة ترتبط بالخيال وغير قابلة للتكرار، بل أنه لا وجود للتاريخ أصالة لأن كل الأحداث تاريخية.

3. التاريخ من "النظر السببي" إلى "النظر السنني" إعادة تصنيع مفهوم التاريخ.

يُعتقد أن العلم يُعرف بموضوعه ومنهجه، فإذا تعيّن الموضوع وانضبط المنهج استوى العلم على سوقه وأصبح مستقلا بذاته. والعلوم عند المسلمين ارتبطت بقاعدة منهجية بسيطة في مبناها عميقة في مضامينها المعرفية هي: "إذا كنت ناقلا فالصحة، أو مدعيا فالدليل"؛ فموضوع البحث لا يخلوا أن يكون خبرا منقولا، أو دعوى مزعومة، مما يجعل العلوم صنفين كبيرين؛ علوم خبرية؛ ينحصر فيها البحث على تحقيق النسبة بين الخبر وبين مصدره؛ مثل علم السيرة وعلم مصطلح الحديث، وعلم الجرح والتعديل وعلم تراجم الرجال..، وعلوم أدعائية، يتجه فيها البحث إلى بناء الأدلة العلمية

المنسجمة معه والتي من شأنها أن تكشف عن مدى صدق هذا الادعاء، وهذه العلوم أصناف ثلاثة؛ علوم مجردة مثل الرياضيات والمنطق.. وعلوم مادية تجريبية وعلوم حقوقية مدنية (البوطي، 1997م، الصفحات 34-45)، فإذا جاء نصر الله والفتح ودخل الناس في دين الله أفواجا، وجدوا أنفسهم ينتظمون في أمة واحدة منسجمة، تتجه إلى العالمية بقدوتها وأسوتها الحسنة الضابطة لوجودها وحركتها، إنه الرسول صلى الله عليه وسلم، لهذا أدركت الأمة ضرورة معرفة ما كانت عليه سيرته ومسيرته وما أنتجه من أقوال وأفعال في بناء هذه الأمة.. من أجل ذلك تولدت الحاجة إلى علم التاريخ وجمع الأخبار وكتابة السيرة والسنة النبوية، فكان الارتباط بين المنهج والعقيدة الدينية قويا؛ فزيادة على أنه شرط من شروط تحقيق الإيمان، وضرورة نابعة من عالمية الدعوة الإسلامية، وتصحيح للعقائد عند أصحاب الديانات المحرفة، وتحقيق لعقيدة الشهادة على الناس،.. يجد المسلمون أنفسهم في مستوى أحداث التاريخ الكبرى، وبين دول كبرى لها تاريخ عريق، فالدور الديني والعقدي والدعوي والحضاري هو دور تاريخي بالدرجة الأولى.

فالجهد الذي بذله المؤرخون الأوائل، لمعرفة السيرة والسنة النبوية الصحيحة كان من مقاصده؛ اكتشاف العلاقة بين الجانب النظري الإلهي الرباني المتمثل في الدين المكتمل، والجانب العملي المتمثل في الفعل البشري الذي يقع على مسرح التاريخ، وكيف تحققت الوحدة في العقيدة والمعاملة والسلوك، وبلغت الأمة من التوازن والانسجام في عهده صلى الله عليه وسلم أقصى الدرجات.

فالتاريخ عند المسلمين مرتبط بإنتاج المعرفة واستقلال النظام المعرفي الإسلامي، فالخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين وردت إليه من الدول والإمبراطوريات المتاخمة رسائل مؤرخة بتقويم تلك البلدان أدرك أهمية التقويم، فجعل الهجرة النبوية تاريخا للتقويم الإسلامي، يُعلن عن استقلال الأمة بنظامها المعرفي عن المنظومات المعرفية الأخرى من جهة، ويوقظ همم المسلمين إلى ضرورة معرفة أخبار العرب (أيام العرب) وأنسابهم وتاريخ الدول والإمبراطوريات المتاخمة، للتزود بالخبرة المعرفية للتعامل مع القبائل العربية لتوحيدها، والتعامل مع تلك الدول والإمبراطوريات لدعوتها إلى الإسلام وفتحها من جهة، وأهمية الشعر الجاهلي واللغة العربية في فهم الدين، ويظهر ذلك في سؤالات نافع بن الأزرق إلى عبد الله بن عباس (السامرائي، 1968م) من جهة أخرى، وهذا ما تفطن إليه ابن خلدون حين أكتشف بأن للتاريخ ظاهر هو الأحداث التاريخية، وباطن هو القوانين والسنن التي تتحكم في حركة التاريخ.

وقد أجحف تصنيف العلوم سواء عند الفلاسفة أو العلماء المسلمين في حق التاريخ ولم يضعه في المرتبة التي تعكس المكانة الحقيقية له كعلم كما تمت ممارسته في النشاط العلمي والنظام المعرفي الإسلامي، مما أوجد هوة كبيرة بين إنتاج التاريخ والتنظير له (أومليل، 1985م، الصفحات 57-58)، وهذا ما جعل ابن خلدون ينتزعه من العلوم التقليدية ويضمه إلى العلوم الفلسفية: "فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق وجدير بأن يُعد في علومها وخليق" (ابن خلدون، 1348هـ-1930م، صفحة 3)، ليضفي

عليه الطابع الفلسفي، ويخرجه من السرد والتدوين إلى البحث عن السنن والقوانين التي تحكم سيرورة العُمران البشري وحركة التاريخ والحضارة.

فالتاريخ الإسلامي أو بالأحرى تاريخ المسلمين يعاني من عدة مشكلات تداخلت الأسباب في وجودها، منها مشكلة المنهج ومشكلة المصطلحات والمفاهيم ومشكلة التحقيب وتقسيم العصور.. فقد هيمنت المفاهيم والمناهج الأوروبية منذ اليونان.

1.3. مفهوم التاريخ قبل ابن خلدون

يمتد التاريخ الإسلامي خلال أربعة عشر قرنا، يبدأ بقيام البعثة المحمدية، أي الدعوة إلى الإسلام سرا ثم جهرا، وتعتبر هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، عام 621م حدا فاصلا لبداية التاريخ الإسلامي، وهو التاريخ الذي اعتبره عمر، الخليفة الثاني مبدأ التقويم الإسلامي، إذ فيه تكونت أول جماعة إسلامية مستقرة هي النواة الأولى للدولة الإسلامية.

غير أن المسلمون لم يهتموا بتدوين أحداث هذا التاريخ، إلا منذ القرن الثاني للهجرة، ومع ذلك كان التاريخ أو علم أخبار الماضي معروفا في بعض صوره عندهم، وإن لم يكن مدونا كأخبار الوقائع الحربية بين قبائلهم، وهي التي تعرف بأيام العرب، وكذلك سير الأبطال، فضلا عن عناية العرب بتقصي الأنساب.

اتصلت نشأة الدراسة التاريخية عند المسلمين، بنشأة الدراسات المتصلة بالعقيدة كالتفسير وعلوم الحديث، وبدأت الحاجة بعد ذلك إلى تعرُّف حقيقة الأعلام، والأماكن الواردة في القرآن، كما ألحت الحاجة إلى ضرورة جمع السيرة النبوية، وما يتصل بها من أخبار المغازي والفتوح وسير الصحابة والتابعين، كما دعت الحاجة إلى الدراسة النقدية لرواة الحديث، ومن ثم نشأت كتب الطبقات والسير والأنساب، وتلت هذه المرحلة العناية بالتاريخ الإسلامي العام، ثم علاقة هذا التاريخ بالدول المجاورة، التي اتصل بها المسلمون في فتوحاتهم، ومن ثم نشأت أنواع من المصنفات التاريخية أهمها: كتب الأنساب ومن أقدمها الكتاب الذي يعزى إلى الكلبي، وكتب السيرة النبوية والمغازي ومن أقدمها سيرة ابن هشام، وكتاب المغازي للواقدي، وكتب الطبقات من الصحابة والتابعين، والحفاظ والفقهاء والصوفية والنحويين وغيرهم، ومن أقدمها طبقات ابن سعد، وكتب السير والتراجم المجموعة ومن أقدمها تاريخ بغداد للبغدادي، وكتب التاريخ الإسلامي العام، وأقدمها تاريخ الطبري (تاريخ أخبار الرسل والملوك)، وكتب التاريخ الخاص، ومن أقدمها تاريخ فتوح الشام للواقدي، وفتوح مصر والمغرب، لأبن عبد الحكم، وتاريخ مكة للأزرقي، وتاريخ دمشق لأبن عساكر، وهناك نوع آخر يتمثل في المعاجم التاريخية، ومن أقدمها الاستيعاب في معركة الأصحاب لأبن عبد البر.

وهذه المصنفات توحي بوجود اتجاهين كبيرين في دراسة التاريخ عند المسلمين؛ اتجاه يدرس الوقائع في فرديتها القائمة بذاتها، واتجاه يعتبر الوقائع مجرد مظاهر فيبحث خلفها عما اختبأ من سنن ثابتة لا

يعتريها أي تغيير أو تبديل، تماما كما يفعل الفيزيائي الذي لا يلجأ إلى دراسة الظواهر الطبيعية في ذاتها وإنما يتخذها وسيلة لاكتشاف القانون الذي يسيرها، ولعل سيادة المنهج الاستقرائي عند المسلمين خاصة المدرسة الأشعرية هو العامل الأساسي لتكوين فلسفة التاريخ، فقد عممه العلماء ليشمل الظاهرة الإنسانية عموما والحادثة التاريخية على الخصوص، فطرحوا السؤال؛ هل الحاثة التاريخية فريدة من نوعها أم أنها حصلت من قبل ويمكن لها أن تحصل من جديد في المستقبل؟ إذن الظاهرة التاريخية قابلة للتكرار، وبما أنها كذلك فهي لا تهم في ذاتها بقدر ما هي وسيلة لاكتشاف القانون الثابت والسنة التي تتحكم فيها، وهذا بالضبط ما تفطن إليه ابن خلدون وجمعه في منهج تاريخي استقرائي -بعد أن استفاد ممن سبقه-: فالحادثة التاريخية ترتبط بالوثائق والشهادات والروايات والآثار... إذن يجب أولا جمع هذه المصادر ثم التحقق من صحتها بنقدها داخليا وخارجيا، ثم إجراء عملية تركيب وترتيب للأحداث حسب تسلسلها ثم تأتي مرحلة التفسير التي تكشف عن السنة الثابتة التي تختفي وراء هذه الحوادث.

وقد قُسِّم التاريخ الإسلامي إلى مراحل لكل مرحلة خصائصها: العصر الإسلامي الأول ويشمل السيرة النبوية وتاريخ الخلفاء الراشدين الأربعة، والعصر الأموي ويشمل تاريخ الدولة الأموية بدمشق، والعصر العباسي، وينتهي بسقوط بغداد على يد هولاكو، وينقسم إلى أربعة مراحل: العصر العباسي الأول وينتهي بخلافة المتوكل، والثاني الذي ينتهي بقيام دولة بني أيوب، والثالث ينتهي بقيام دولة السلاجقة، والرابع ينتهي بسقوط بغداد، كما يشمل هذا العصر تاريخ الكثير من الدول الإسلامية الإقليمية؛ كالدولة الأموية بالأندلس، ودولة الأدارسة والمرابطين والموحدين بشمال أفريقية، ودولة الخلافة الفاطمية بمصر، والدولة الصفارية والسمانية والغورية والغزنوية في المشرق، ودولة الأغالبة بتونس.

ثم يأتي العصر المغولي الذي يمتد من سقوط بغداد إلى فتح مصر، على يد العثمانيين، كما يعرف بعصر الخلافة العباسية بالقاهرة، ويشمل تاريخ دولتي الممالك المصرية، وتاريخ الدولة المرينية والحفصية والوطاسية، بشمال أفريقية، والدولة الإيلخانية والجغتائية والسلجوقية والتيمورية في المشرق، ثم الدول والإمارات الإسلامية بالهند، كالغورية والخلجية والتغلقية والبهمنية.

ثم العصر العثماني ويمتد من فتح العثمانيين المشرق العربي، إلى حملة نابليون على مصر، ويشمل تاريخ التوسع العثماني في أوروبا، وتاريخ الدولة الصفوية، والإمبراطورية المغلية بالهند، ودولة البايات والدايات بشمال أفريقية.

أما العصر الحديث، فيبدأ من نهاية القرن الثامن عشر وينتهي بالحرب العالمية الثانية، ويتميز بتقلص حكم الخلافة العثمانية في أوروبا، وبتاريخ الصراع الاستعماري الأوروبي في أفريقيا وآسيا الإسلامية، ثم بقيام حركات التحرر التي انبثقت عنها دول إسلامية جديدة، في قارتي أفريقيا وآسيا، ومن أهمها قيام اندونيسيا، وباكستان (عطية، 1963، دط، الصفحات 424-426).

2.3. مفهوم التاريخ بعد ابن خلدون

أدرك ابن خلدون أن المعادلة الحضارية تبدأ حين يدرك الإنسان أن فقه السنن الحضارية لا يحصل إلا بفقه سنن العُمران البشري، وفقه سنن العمران البشري لا يحصل إلا بفقه سنن المُلك، إضافة إلى فقه السنن الكونية الذي يمثل المشترك الإنساني، لهذا لا يمكن فهم ابن خلدون إلا بالنظر إلى أسلافه مثل: المسعودي والغزالي أبو حامد والأشاعرة عموما، ولاحقيه مثل ابن الأزرق الأندلسي، ومحمد الحسني الإدريسي العمراني اللجائي، ومحمد بن محمد العلاف السفياني، والأمغطي العبدلاري وغيرهم كثير وخاصة أبو القاسم بن رضوان في كتابه "الشهب اللامعة في السياسة النافعة".

ورغم أن هناك الكثير من علامات الاستفهام التي طرحها ابن الأزرق عن ابن خلدون منها؛ عدم تحليه بالأمانة العلمية؛ حيث نسب الكثير من الأحكام والنظريات العلمية إلى نفسه مثل؛ نظرية العصبية ونظرية الدورات التاريخية رغم أنه أخذها من غيره. كذلك تكتُّمه عن المصادر التي أخذ منها (ابن الأزرق، 1429هـ-2008م، الصفحات 21-41). ورغم أنه لم يكن واعيا بما فيه الكفاية -مثل ابن الأزرق- بالمنهج الاستقرائي التاريخي الذي أخذه من الأشاعرة، ورغم كل ما قيل عن ابن خلدون، إلا أنه يعتبر مؤسس فلسفة التاريخ التي تمثل علما أساسيا لتفعيل فقه السنن الحضارية.

يقول ابن خلدون: "إذ هو (فن التاريخ) في ظاهره لا يزيد على أخبار عن الأيام والدول، والسوابق من القرون الأول تنمي فيها الأقوال، وتضرب فيها الأمثال، وتطرف بها الأندية إذا غصَّها الاحتفال، وتؤدي لنا شأن الخليقة كيف تقلبت بها الأحوال، واتسع للدول فيها النطاق والمجال، وعمروا الأرض حتى نادى بهم الارتحال، وحان منهم الزوال.

وفي باطنه نظر وتحقيق وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق. فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق وجدير بأن يعد في علومها وخليق" (ابن خلدون، المقدمة، 1930م، الصفحات 2-3). كان الشعر عند العرب الوسيلة الغالبة لتدوين التاريخ، إلى أن جاء البيروني واستخدم النثر في اغلب كتاباته التاريخية، وعموما، فإن التاريخ بالرغم من استقلاله المنهجي الذي شهده مع البيروني، إلا أنه كان يعد من بين الفنون الأدبية مثل الشعر والأغاني، التي هي قص للأيام يغلب عليها الخيال الذي ليس له موضوع معين لذلك تساوى فيه العلماء والجُهَّال. وهذا هو ظاهر التاريخ الذي يعنيه ابن خلدون، من حيث أنه فن من الفنون الأدبية.

أما باطن التاريخ فهو من جنس فلسفي، يتجاوز ظاهر الأحداث لينفذ إلى أعماقها، ويقوم بتفسيرها وتعليلها وتحديد علاقتها بأحوال العمران البشري، واستنباط القوانين التي تتحكم في حركتها. فأصبح علم التاريخ يقوم على جانين؛ أحدهما ظاهري يتمثل في رواية الحادثة التاريخية كما هي في الواقع. والثاني باطني يقوم بالبحث عن أسبابها، والكشف عن السنن والقوانين الكلية التي تحكم حركة سيرها.

هناك ازدواج مفهومي لكلمة تاريخ إذ؛ تعني تارة محتوى المادة التاريخية، وتعني تارة أخرى طريقة التعامل مع هذه المادة، وقد أدت هذه الازدواجية إلى خلط في فهم معنى اللفظ، وهذا ما طرحه على شريعتي في قوله: "يوجد تناقض لفظي في موضوع التاريخ، كما هو الملاحظ في كل من اللغات الانجليزية والفرنسية والألمانية، مفهومان مختلفان عن بعضهما يستخدمان للدلالة على كلمة واحدة.. أما في التاريخ فالمفهومان "موضوع التاريخ" و"علم التاريخ"، اشتركا بلفظة واحدة وهي التاريخ لبيان مدلولاتهما" (شريعتي، 1990م، ط1، صفحة 10).

ولرفع هذا الازدواج في استعمال كلمة تاريخ، وجب تحديد المصطلح أكثر. إذ هناك عدة محاولات لضبط المصطلح وتخطي تلك الازدواجية، وهذه المحاولات تحقق شبه إجماع على أن كلمة تاريخ خاصة بالموضوع، أما طريقة التعامل مع المادة التاريخية فتبقى محل اختلاف واجتهاد، فما هو مفهوم التاريخ عند المؤرخين القدامى؟.

قال ابن خلدون: "فن التاريخ من الفنون التي تتداوله الأمم والأجيال، وتشد إليه الركائب والرحال، وتسمو إلى معرفته السوقة والإغفال، وتتنافس فيه الملوك والأقيال، وتتساوى في فهمه العلماء والجهال.

إذ هو في ظاهره لا يزيد على أخبار عن الأيام والدول، والسوابق من القرون الأول، تنمي فيها الأقوال، وتضرب فيها الأمثال، وتطرف بها الأندية إذا غصها الاحتفال، وتؤدي لنا شأن الخليقة كيف تقلبت بها الأحوال، واتسع للدول فيها النطاق والمجال، وعمرو الأرض حتى نادى بهم الارتحال، وحان منهم الزوال.

وفي باطنه نظر وتحقيق وتعليل للكائنات ومباديها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق" (خلدون، 1930م، الصفحات 2-3)، فمن هذا القول يتضح أن ابن خلدون حدد للتاريخ خصائص عامة، وخصائص ظاهرية وخصائص باطنية.

قال السخاوي: "وفي الاصطلاح التاريخ هو التعريف بالوقت الذي تضبط به الأحوال من مولد الرواة والأمة ووفاة وصحة وعقل وبدن وحج وحفظ وضبط وتوثيق وتجريح وما أشبه هذا مما مرجعه الفحص عن أحوالهم في ابتدائهم وحالهم واستقبالهم، ويلتحق به ما يتفق من الحوادث والوقائع الجليلة، من ظهور ملمة، وتجديد فرض، خليفة ووزير وغزوة وملحمة وحرب وفتح بلد، وانتزاعه من متغلب عليه، وانتقال دولة، وربما يتوسع فيه لبدء الخلق وقصص الأنبياء، وغير ذلك من أمور الأمم الماضية، وأحوال القيامة ومقدماتها مما سيأتي. أو دونها كبناء جامع، أو قنطرة أو رصيف أو نحوها مما يعم الانتفاع به مما هو شائع مشاهد، أو خفي سماوي، كجراد وكسوف وخسوف، أو أرضي كزلزلة وحريق وسيل وطوفان وقحط وطاعون وموَتان وغيرها من الآيات العظام والعجائب الجسام.

والحاصل أنه فن يبحث فيه عن وقائع الزمان من حيثية التعيين والتوقيت بل عما كان في العالم.

أما موضوعه فالإنسان والزمان، ومسائله وأحوالهما المفصلة للجزئيات تحت دائرة الأحوال العارضة الموجودة للإنسان وفي الزمان" (السخاوي، مصدر سابق، الصفحات 18-19).

وهناك من يرى أن التاريخ هو قصة المنجزات النوعية التي أحدثها الإنسان، والتي تميزه عن المادة الميتة والحيوان، فالتاريخ هو قانون لحركة البشر وليس للمادة والعضويات الحية التي تتنفس، أو للحيوانات، بل يعني بمنجزات الإنسان كشيء متميز عن كل هذه العوالم، بوصفه عالما لحيوانات منظمة تنظيما اجتماعيا" (عاصم الدسوقي، مرجع سابق، صفحة 9).

وقال علي بن الحسين المسعودي: "فإنا صنفنا كتابنا في أخبار الزمان، وقدمنا القول فيه في هيئة الأرض، ومدنها وعجائبها، وبحارها...ثم أتبعنا ذلك بأخبار الملوك الغابرة...ثم أتبعناه بكتابنا الأوسط في الأخبار على التاريخ وما اندرج في السنين الماضية، ومن لدن البدء إلى الوقت الذي عنده انتهى كتابنا الأعظم وما تلاه من الكتاب الأوسط" (المسعودي، 1989م، الصفحات 3-4) وهذا يعني أن التاريخ إضافة إلى الاهتمام بنشاط الإنسان ومنجزاته، يتسع ليشمل المعلومات التي يمكن معرفتها عن نشأة الكون كله، بما يحويه من أجرام وكواكب، ومن بينها الأرض وما جرى على سطحها من حوادث، وهذه النظرة من صلب العقيدة الإسلامية، لأن هدف الدين هو جعل الإنسان والعالم يتجهان بكليتهما إلى الله الواحد القهار.

وقال كروتشيه الإيطالي، بأن التاريخ بأجمعه هو تاريخ معاصر (خليل، مدخل إلى التاريخ الإسلامي، 2005م، ط1، صفحة 7)، أي أنه يتألف بصورة أساسية من رؤية الماضي من خلال عيون الحاضر، وعلى ضوء مشاكله، وبالتالي فالعمل الأساسي للمؤرخ، ليس التدوين، وإنما التقييم الذي يساعده على معرفة قيمة الأشياء التي تستحق التدوين.

وهناك من لاحظ أنه منذ ظهور كلمة مجتمع في عالم الفكر، تغير مفهوم التاريخ، حيث لم يعد التاريخ هو سرد أخبار البلاطات والمجالس الدولية، بل أصبح يتناول المجتمع في كليته، فمع مالك بن نبي أصبح التاريخ هو البحث في شروط ميلاد المجتمعات، فحين أراد مالك بن نبي أن يدرس قضية ميلاد مجتمع دراسة تاريخية، شعر بضرورة ضبط المفاهيم وتحديد الإطار النظري لهذا الميلاد، فميز بين المجتمع الطبيعي والمجتمع التاريخي، وتأكد له أن المجتمع الأول هو نموذج المجتمع الساكن ذي المعالم الثابتة، والمجتمع الثاني هو نموذج المجتمع المتحرك الذي يخضع لقانون التغيير، الذي يعدل معالمه من جذورها.

إذن لم يعد التاريخ مع مالك بن نبي هو جمع وتتبع الأحداث الفريدة من نوعها، وإنما هو تتبع شبكة العلاقات الاجتماعية، من حيث تماسكها وهشاشتها، بحسب ما يحمله المجتمع من رصيد القيم الأخلاقية.

فعلم التاريخ هو الذي "يبحث في ماضي الشعوب وحاضرها، فيسرد الوقائع ويحللها، ويدرس حياة

الأفراد وأحوال الجماعات" (مسعود، 1990م، ط6، صفحة 350).

معظم تعريفات التاريخ تتفق على أنه معرض الأحداث الماضية وأن موضوعه الإنسان والزمان (قاسم، د ت، ط2، صفحة 24).

فملاحظة الظواهر التاريخية للكشف عن قوانينها السببية الظاهرة يسمى "نظر سببي" يوصل إلى ظاهر التاريخ وهو نظر فرعي يقتصر على البعد الفردي والبعد الحضاري للتاريخ. أما تدبر وتفكر وتعقل.. الآيات التي تتضمنها الظواهر التاريخية للكشف عن السنن الثابتة، يسمى "نظر سنني" وهو نظر أصلي يوصل إلى الكشف عن البعد الغيبي للتاريخ وربطه بالإيمان والاعتبار.

فالفكر السنني أو المنظور السنني الشامل هو الذي يسعى إلى تتويج النظر السببي بالنظر السنني، وبفضل هذا التأسيس يحقق الإنسان الصلاح في الحال؛ فيحيا حياة لا ضنك فيها، كما يرجو الفلاح في المآل فيسعد سعادة لا شقاء معها.

4. خاتمة

وفي نهاية هذا المقال نصل إلى النتائج التالية:

أولا: إن عدم وجود المادة "تاريخ" في القرآن الكريم، دفع علماء العربية إلى البحث عن جذورها في اللسان العربي المتداول في البيئة العربية بمختلف تراكماتها الثقافية، مما أدى إلى الاختلاف في تأصيلهم اللغوي، فأدى ذلك إلى عدم استقرار معنى التاريخ في القواميس والمعاجم العربية، فانعكس - فيما بعد- سلبا على مفهوم التاريخ.

ثانيا: يجب أن نميز في الثقافة الإسلامية بين الدال "التاريخ"، والمدلول "مفهوم التاريخ"، فالدال "تاريخ" بهذا الرسم اللغوي لا وجود له في القرآن الكريم. والمدلول "مفهوم التاريخ" أصيل في الثقافة الإسلامية. مما يعني أن هناك مفارقة بين الدال والمدلول، بين الرسم اللغوي والمعنى، ولتجاوز هذه المفارقة في المفهوم، نقترح مصطلح جديد هو: "فقه القصص".

ثالثا: إن من الأسباب الأساسية التي أدت إلى اضطراب وعدم استقرار مفهوم التاريخ: انفتاح اللغة العربية على الثقافات الأخرى؛ اليونانية والفارسية والعبرية.. فرغم أنه ساهم بعض الشيء في إثراء الثقافة الإسلامية، إلا أنه كان سببا أساسيا في اضطراب مفاهيمها.

رابعا: إن كل مفهوم يتميز بثلاثة خصائص: خاصية التحقيق لأنه ينتمي إلى ثقافة معينة، وخاصية التقييد لأنه يستخدم في مجالات محددة، وخاصية الحفر إذا انتقل إلى ثقافة غير ثقافته الأصل يقوم بعملية البلبلة والتشويش على مفاهيمها. ورغم سعة اللغة العربية وتميزها بخاصية التوليد إلا أن هناك الكثير من الألفاظ التي وفدت إليها واستوطنت في جسمها وشوشت على أصالتها.

5. قائمة المراجع

- ابن خلدون، عبد الرحمن (1930م)، ***المقدمة***، (القاهرة: المطبعة الأزهرية بجوار الأزهر.
- ابن منظور، محمد، (د ت)، ***لسان العرب المحيط***، المجلد الأول من أ إلى ر، إعداد وتصنيف يوسف خياط ونديم مرغشلي، بيروت: دار لسان العرب، دون ط.
- أومليل، علي، (1985م)، ***الخطاب التاريخي دراسة لمنهجية ابن خلدون***، (بيروت: دار التنوير للطباعة والنشر، ط3.
- برغوث الطيب، (1425هـ-2004م)، ***مدخل إلى سنن السيرورة الاستخلافية قراءة في سنن التغيير الاجتماعي***، (الجزائر: دار قرطبة للنشر والتوزيع، ط1.
- بن نبي، مالك، (2000م)، ***ميلاد مجتمع***، تر عبد الصبور شاهين، دمشق: دار الفكر، إعادة ط3.
- البوطي، محمد سعيد رمضان، (1997م)، ***كبرى اليقينيات الكونية وجود الخالق ووظيفة المخلوق***، (بيروت، دمشق: دار الفكر المعاصر، دار الفكر.
- توينبي، أرنولد، (2011م)، ***مختصر دراسة التاريخ***، ج1، ترجمة: فؤاد محمد شبل، القاهرة: المركز القومي للترجمة.
- جبران، مسعود، (1990م)، ***الرائد معجم لغوي عصري***، المجلد1، بيروت: دار العلم للملايين، ط6.
- خليل، عماد الدين، (1978م)، ***التفسير الإسلامي للتاريخ***، بيروت، لبنان: دار العلم للملايين، ط2.
- خليل، عماد الدين، (2005م)، ***مدخل إلى التاريخ الإسلامي***، بيروت: الناشران الدار العربية للعلوم والمركز الثقافي العربي، ط1.
- الدسوقي، عاصم، (1991م)، ***البحث في التاريخ قضايا المنهج والإشكالات***، بيروت: دار الجيل، ط1.
- روزنتال، فرانز، (1963م)، ***علم التاريخ عند المسلمين***، تر: صالح أحمد العلي، بغداد: مكتبة المثنى.
- ريتشارد، ج إيفاتر وآخرون، (2006م)، ***ما لتاريخ الآن؟***، ترجمة: قاسم عبده قاسم، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ط1.
- زريق، قسطنطين، (د ت)، ***نحن والتاريخ***، بيروت: دار العلم للملايين، ط1.
- سالم، عبد العزيز، (1981م)، ***التاريخ والمؤرخون العرب***، بيروت: دار النهضة العربية، ط1.
- السخاوي، محمد بن عبد الرحمن (1986م)، ***الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ***، ترجمة الدكتور صالح أحمد العلي، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط1.
- السمرائي، إبراهيم، (1968م)، ***سؤالات نافع بن الأزرق إلى عبد الله بن عباس***، بغداد: دار المعارف.
- شريعتي، علي، (1990م)، ***الإنسان والتاريخ***، ترجمة خليل علي، طهران إيران: دار الصحف للنشر، ط1.
- العروي، عبد الله، (1973م)، ***العرب والفكر التاريخي***، بيروت: دار الحقيقة للطباعة والنشر.
- العروي، عبد الله، (2005م)، ***مفهوم التاريخ***، الدار البيضاء، المغرب: المركز الثقافي العربي، ط4.
- عطية الله، أحمد، (1963م)، ***القاموس الإسلامي***، مجلد1، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، د ط.

- قاسم، عبده قاسم، (د ت)، ***الرؤية الحضارية للتاريخ***، القاهرة: دار المعارف، ط2.
- قيين، بول، (1993م)، ***أزمة المعرفة التاريخية***، ترجمة: إبراهيم فتحي، القاهرة: مؤسسة الأهرام للنشر والتوزيع، ط1.
- المسعودي، علي بن الحسين، (1989م)، ***مروج الذهب ومعادن الجوهر***، ج1، تقديم محمد السويدي، الجزائر: موفم للنشر.
- Ibn Manduor, The Tongue of the Surrounding Arabs, Volume 1 of A to R, prepared and classified by Youssef Khayat and Nadim Marghshali (Beirut: Dar Al-San al-Arab, Don I, DT).
- Ahmed Attia Allah, Islamic Dictionary, Volume 1 (Cairo: Egyptian Renaissance Library, 1963, D.I).
- Al-Samarrai, Ibrahim, Questions Nafi ibn al-Azraq to Abdullah ibn Abbas (Baghdad: Dar al-Ma'arif, 1968).
- Ibn Khaldoun, Abdrrahman, introduction, (Cairo: Al-Azhar press next to Al-Azhar, 1348 Ah-1930).
- O'mliel, Ali, the historical discourse is a study of ibn Khaldoun's methodology (Beirut: The Enlightenment House for Printing and Publishing, i3, 1985).
- Barghouth al-Tayeb, entrance to the sounan of the succession process read in the years of social change, (Algeria: Cordoba Publishing and Distribution House, 1425 Ah-2004 AD, i1).
- Al-Bouti, Mohammed Saeed Ramadan, the greatest universal certainty of the existence of the Creator and the function of the creature, (Beirut, Damascus: The House of Contemporary Thought, Dar al-Thought, Re-i 1997).
- Djbran Massoud, Major Modern Linguistic Dictionary, Volume 1 (Beirut: Dar al-Alam for Millions, 1990, i6).
- Issam Al-Desouki, Research in History on Curriculum issues and Problems (Beirut: Dar al-Jil, 1991, i1).
- Abdelaziz Salem, Arab History and Historians (Beirut: Arab Renaissance House, 1981, il).
- Abdullah al-Aroui, Arabs and Historical Thought (Beirut: Dar al-Haqa Printing and Publishing, 1973 D.I)..
- Abdullah Al-Aroui, Concept of History (Casablanca, Morocco: Arab Cultural Center, 2005 AD4).
- Ali bin Al Hussein Al Massoudi, Gold And Essence Minerals Promoter, C1, presented by Mohamed Al Suwaidi (Algeria: Movem Publishing, 1989 D.I).
- Ali Shariati, Man and History, translated by Khalil Ali (Tehran Iran: Newspaper Publishing House, 1990, i1).
- Imad al-Din Khalil, Islamic Interpretation of History (Beirut, Lebanon: Dar al-Alam for Millions, 1978, i2).

- Imad al-Din Khalil, Entrance to Islamic History (Beirut: Publishers, Arab House of Sciences and Arab Cultural Center, 2005, i1).
- Franz Rosenthal, Muslim History, Ter: Saleh Ahmed al-Ali (Baghdad: Muthanna Library, 1963).
- Qassim Abdo Qassem, The Civilized Vision of History (Cairo: Dar al-Taqfa, DT, i2).
- Constantine Zureik, Us and History (Beirut: Dar al-Alam for millions, DT, i1).
- Malik bin Nabi, The birth of a community, Trad: Abdssaboor Shaheen (Damascus: Dar al-Fikr 2000 re-i3).
- Mohammed bin Abdul Rahman bin Mohammed Shamseddine Al-Sakhawi, The Declaration of Rebuke to the People of History, translated by Dr. Saleh Ahmed Al-Ali, Beirut: Al-Resala Foundation, 1986, i1).